

هذه السورة نزلت في غزوة بدر الكبرى .. وغزوة بدر - بملاسياتها وبما ترتب عليها في تاريخ الحركة الإسلامية وفي التاريخ البشري جملة - تقوم معلماً ضخماً في طريق تلك الحركة وفي طريق هذا التاريخ .

وقد سمى الله - سبحانه - يومها يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .. كما أنه جعلها مفرق الطريق بين الناس في الآخرة كذلك لا في هذه الأرض وحدها ؛ ولا في التاريخ البشري على هذه الأرض في الحياة الدنيا وحدها . فقال سبحانه : هذان خصمان اختصموا في ربهم: فالذين كفروا قطع لهم ثياب من نار ، يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها - من غم - أعيدوا فيها ، وذوقوا عذاب الحريق .. إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد .. [ الحج: 19 - 24 ] وقد ورد أن هذه الآيات نزلت في الفريقين اللذين التقيا يوم بدر .. يوم الفرقان . لا في الدنيا وحدها ، ولا في التاريخ البشري على الأرض وحدها ؛ ولكن كذلك في الآخرة وفي الأبد الطويل .. وتكفي هذه الشهادة من الجليل - سبحانه - لتصوير ذلك اليوم وتقديره .. وسنعرف شيئاً من قيمة هذا اليوم ، حين نستعرض الوقعة وملاسياتها ونتائجها .. ومع كل عظمة هذه الغزوة ، فإن قيمتها لا تتضح أبعادها الحقيقية إلا حين نعرف طبيعتها وحين نراها حلقة من حلقات "الجهاد في الإسلام" ، وحين ندرك بواعث هذا الجهاد وأهدافه . كذلك نحن لا ندرك طبيعة "الجهاد في الإسلام" وبواعثه وأهدافه ، قبل أن نعرف طبيعة هذا الدين ذاته ..

لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد في الإسلام في "زاد المعاد" ، في الفصل الذي عقده باسم: "فصل في ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل: أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى: أن يقرأ باسم ربه الذي خلق . وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه: يا أيها المدثر . قم فأنذر فنبأه بقوله: اقرأ وأرسله ب يا أيها المدثر . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقرين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ؛ ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ؛ فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها: فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف واللسان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم .. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ؛ أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ؛ فإذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهد ؛ وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفي بعهد عهده إلى مدته ؛ فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة .. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين: محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به . ومسالم له أمن . وخائف محارب .. وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ؛ ويكلم سرايرهم إلى الله ؛ وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ؛ وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهي أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين ..

ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً. ولكننا في هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى: هي الواقعية الحدية في منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعاً بشرياً . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعي . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ؛ تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ؛ تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه . . تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ؛ تلك التي تحول بين حمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ؛ وتخضعهم بالقهر والتضليل وتعبدتهم لغير ربهم الحليل . . إنها حركة لا تكفي بالبيان في وجه السلطان المادي . كما أنها لا تستخدم القهر المادي لضمائر الأفراد . . وهذه كتلك سواء في منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سحيء . .

والسمة الثانية في منهج هذا الدين . . هي الواقعية الحركية . فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها . . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة . كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متحمدة . . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين في الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التي مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ؛ ويلبسون منهج هذا الدين لسياً مضللاً ، ويحملون النصوص ما لا تجتمه من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً ؛ يمثل القواعد النهائية في هذا الدين . ويقولون - وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان -: إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ؛ ويحسبون أنهم يسدون إلى هذا الدين حملاً يتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جمعاً ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد لا يقهرهم على اعتناق عقيدته . ولكن بالتخلية عنهم وبين هذه العقيدة . . بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الحزبة وتعلن استسلامها والتخلية بين حمايرها وهذه العقيدة تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها . .

والسمة الثالثة: هي أن هذه الحركة الدائمة ، والوسائل المتحددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الأول - سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين ، أو يخاطب قريشاً ، أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين ، إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ؛ وبطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد . . هو إخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين . ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد ، في خطة مرسومة ؛ ذات مراحل محددة ؛ لكل مرحلة ووسائلها المتحددة . على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة .

والسمة الرابعة: هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم ووسائل المجتمعات الأخرى - على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الحيد الذي نقلناه عن "زاد المعاد" . وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه ؛ أو أن تسالمة بحملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي ، أو قوة مادية . وأن تخلي بينه وبين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يجاربه ؛ فإن فعل ذلك أحد كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله أو حتى يعلن استسلامه !

والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام" ! . . يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة ، وسن منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه ؛ والتي تعبد الناس للناس ؛ وتمنعهم من العبودية لله . . وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما . . ومن أجل هذا التخليط - وقيل ذلك من أجل تلك الهزيمة -! يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: "الحرب الدفاعية" . . والجهاد في الإسلام أمر آخر لا علاقة له بحروب الناس اليوم ، ولا بواعثها ، ولا تكيفها

كذلك .. إن بواعث الجهاد في الإسلام ينبغي تلمسها في طبيعة "الإسلام" ذاته ، ودوره في هذه الأرض ، وأهدافه العليا التي قررها الله ؛ وذكر الله أنه أرسل من أهلها هذا الرسول بهذه الرسالة ، وجعله خاتم النبيين وجعلها خاتمة الرسالات ..  
إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد - ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد - وذلك بإعلان ألوهية الله وحده - سبحانه - وربوبيته للعالمين .. إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها ؛ والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض الحكم فيه للبشر بصورة من الصور .. أو تعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور .. ذلك أن الحكم الذي مرد الأمر فيه إلى البشر ، ومصدر السلطات فيه هم البشر ، هو تأليه للبشر ، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله .. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب وردّه إلى الله ؛ وطرد المغتصبين له ؛ الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم فيقومون منهم مقام الأرباب ؛ ويقوم الناس منهم مقام العبيد .. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض .. أو بالتعبير القرآني الكريم:

وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله ..  
إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه .. ذلك الدين القيم .. قل: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا: أشهدوا بأننا مسلمون ..  
ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم - هم رجال الدين كما كان الأمر في سلطان الكنيسة ، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة ، كما كان الحال في ما يعرف باسم "الثيوقراطية" أو الحكم الإلهي المقدس !!! - ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة ؛ وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة .

وقيام مملكة الله في الأرض ، وإزالة مملكة البشر . وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبه من العباد وردّه إلى الله وحده . وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية .. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان . لأن المتسلطين على رقاب العباد ، المغتصبين لسلطان الله في الأرض ، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان . وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض ! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وتاريخ هذا الدين على ممر الأجيال !  
إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله ، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ، لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً .. إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً .. إعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله ؛ ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك .. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل "الحركة" إلى جانب شكل "البيان" .. ذلك ليواجه "الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه .

والواقع الإنساني ، أمس واليوم وغداً ، يواجه هذا الدين - بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله - بعقبات اعتقادية تصورية ، وعقبات مادية واقعية .. عقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية ، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة .. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد ..

وإذا كان "البيان" يواجه العقائد والتصورات ، فإن "الحركة" تواجه العقبات المادية الأخرى - وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية ، والعنصرية والطبقية ، والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة .. وهما معا - البيان والحركة - يواجهان "الواقع البشري" بجملته ، بوسائل مكافئة لكل مكوناته .. وهما معا لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض .. "الإنسان" كله في "الأرض" كلها .. وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى !

إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي ! وليس رسالة خاصة بالعرب ! .. إن موضوعه هو "الإنسان" .. نوع "الإنسان" .. ومجاله هو "الأرض" .. كل الأرض . إن الله - سبحانه - ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم .. إن الله هو رب العالمين .. وهذا الدين يريد أن يرد العالمين إلى ربهم ؛ وأن ينتزعهم من

العبودية لغيره . والعبودية الكبرى - في نظر الإسلام - هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر . . وهذه هي "العبادة" التي يقرر أنها لا تكون إلا لله . وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين . ولقد نص رسول الله [ ص ] على أن "الاتباع" في الشريعة والحكم هو "العبادة" التي صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين لما أمروا به من "عبادة" الله وحده . . أخرج الترمذي - بإسناده - عن عدى بن حاتم - رضي الله عنه - أنه لما بلغت دعوة رسول الله [ ص ] فر إلى الشام . وكان قد تنصر في الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم من رسول الله [ ص ] على أخته وأعطاهما . فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله [ ص ] فتحدث الناس بقدومه . فدخل على رسول الله [ ص ] وفي عنقه [ أي عدي ] صليب من فضة وهو [ أي النبي ] [ ص ] [ ص ] يقرأ هذه الآية: اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله . . قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم . فقال: بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم . . وتفسير رسول الله [ ص ] لقول الله سبحانه ، نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم هو العبادة التي تخرج من الدين ، وأنها هي اتخاذ بعض الناس أرباباً لبعض . . الأمر الذي جاء هذا الدين ليلغيه ، ويعلن تحرير "الإنسان" ، في "الأرض" من العبودية لغير الله . .

ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في "الأرض" لإزالة "الواقع" المخالف لذلك الإعلان العام . . بالبيان وبالحركة مجتمعين . . وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبد الناس لغير الله - أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه - والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى "البيان" واعتناق "العقيدة" بحرية لا يتعرض لها السلطان . ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي - بعد إزالة القوة المسيطرة - سواء كانت سياسية بحتة ، أو مثلية بالعنصرية أو الطبقية داخل العنصر الواحد !

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته . . ولكن الإسلام ليس مجرد "عقيدة" . . إن الإسلام كما قلنا إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد . فهو يهدف ابتداءً إلى إزالة الأنظمة والحكومات التي تقوم على أساس حاكمية البشر للبشر وعبودية الإنسان للإنسان . . ثم يطلق الأفراد بعد ذلك أحراراً - بالفعل - في اختيار العقيدة التي يريدونها بمحض اختيارهم - بعد رفع الضغط السياسي عنهم وبعد البيان المنير لأرواحهم وعقولهم - ولكن هذه الحرية ليس معناها أن يجعلوا إلههم هواهم ؛ أو أن يختاروا بأنفسهم أن يكونوا عبيداً للعباد ! وأن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله ! . . إن النظام الذي يحكم البشر في الأرض يجب أن تكون قاعدته العبودية لله وحده ؛ وذلك بتلقي الشرائع منه وحده . ثم ليعتق كل فرد - في ظل هذا النظام العام - ما يعتنقه من عقيدة ! وبهذا يكون "الدين" كله لله . أي تكون الدينونة والخضوع والاتباع والعبودية كلها لله . . إن مدلول "الدين" أشمل من مدلول "العقيدة" . . إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة . ولكنه في عمومته أشمل من العقيدة . . وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام . . والذي يدرك طبيعة هذا الدين - على النحو المتقدم - يدرك معها حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف - إلى جانب الجهاد بالبيان - ويدرك أن ذلك لم يكن حركة دفاعية - بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية" - كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام - إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" في "الأرض" . . بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري ؛ وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها ووسائلها المتجددة .

وإذا لم يكن بد من أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية ، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة "دفاع" . . ونعتبره "دفاعاً عن الإنسان" ذاته ، ضد جميع العوامل التي تقيد حريته وتغوق تحرره . . هذه العوامل التي تتمثل في المعتقدات والتصورات ؛ كما تتمثل في الأنظمة السياسية ، القائمة على الحواجز الاقتصادية والطبقية والعنصرية ، التي

كانت سائدة في الأرض كلها يوم جاء الإسلام ؛ والتي ما تزال أشكال منها سائدة في  
الجاهلية الحاضرة في هذا الزمان !

وبهذا التوسع في مفهوم كلمة "الدفاع" نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق  
الإسلامي في "الأرض" بالجهاد ؛ ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها ، وهي أنه إعلان عام لتحرير  
الإنسان من العبودية للعباد ، وتقرير الوهية الله وحده وربوبيته للعالمين ؛ وتحطيم مملكة  
الهوى البشري في الأرض ، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان . .  
أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري  
للحرب الدفاعية ؛ ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت  
لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامي" ! \_وهو في عرف  
بعضهم جزيرة العرب - فهي محاولة تتم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين ، ولطبيعة  
الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض . كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر ؛  
وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي !

ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان - رضي الله عنهم - قد أمنوا عدوان الروم والفرس  
على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض ؟ وكيف  
كانوا يدفعون هذا المد ، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية - من أنظمة الدولة  
السياسية ؛ وأنظمة المجتمع العنصرية والطبقية ، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات  
العنصرية والطبقية ، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك ؟!

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير "الإنسان" . . نوع الإنسان . . في  
"الأرض" . . كل الأرض . . ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان ! . . إنها  
تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد ، تخاطبهم بحرية ، وهم مطلقو  
السراح من جميع تلك المؤثرات . . فهنا لا إكراه في الدين . . أما حين توجد تلك العقبات  
والمؤثرات المادية ، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة ، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان  
وعقله ؛ وهو طليق من هذه الأغلال !

إن الجهاد ضرورة للدعوة . إذا كانت أهدافها هي إعلان تحرير الإنسان إعلاناً جاداً يواجه  
الواقع الفعلي بوسائل مكافئة له في كل جوانبه ؛ ولا يكتفي بالبيان الفلسفي النظري  
السليبي ! سواء كان الوطن الإسلامي - وبالتعبير الإسلامي الصحيح: دار الإسلام - أمناً أم  
مهتداً من جيرانه . فالإسلام حين يسعى إلى السلم ، لا يقصد تلك السلم الرخيصة ؛ وهي  
مجرد أن يأمن على الرقعة الخاصة التي يعتنق أهلها العقيدة الإسلامية . إنما هو يريد  
السلم التي يكون الدين فيها كله لله . أي تكون عبودية الناس كلهم فيها لله ؛ والتي لا  
يتخذ فيها الناس بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله . والعبرة بنهاية المراحل التي وصلت  
إليها الحركة الجهادية في الإسلام - بأمر من الله - لا بأوائل أيام الدعوة ولا بأوسطها . .  
ولقد انتهت هذه المراحل كما يقول الإمام ابن القيم: " فاستقر أمر الكفار معه - بعد نزول  
براءة - على ثلاثة أقسام: محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد  
والصلح إلى الإسلام . . فصاروا معه قسمين: محاربين ، وأهل ذمة . والمحاربون له  
خائفون منه . . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن  
[ وهم أهل الذمة كما يفهم من الجملة السابقة ] وخائف محارب . . وهذه هي المواقف  
المنطقية مع طبيعة هذا الدين وأهدافه . لا كما يفهم المهزومون أمام الواقع الحاضر ،  
وأمام هجوم المستشرقين الماكر ! ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة ؛ وفي  
أول العهد بالهجرة إلى المدينة . . وقيل للمسلمين: كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا  
الزكاة . . ثم أذن لهم فيه ، فقبل لهم: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على  
نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق - إلا أن يقولوا: ربنا الله . ولولا دفع الله  
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ،  
ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا  
الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور . . ثم فرض  
عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقبل لهم: وقاتلوا في سبيل الله  
الذين يقاتلونكم . . ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقبل لهم: وقاتلوا المشركين  
كافة كما يقاتلونكم كافة . . وقيل لهم: قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا  
يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين آتوا الكتاب ، حتى يعطوا  
الجزية عن يد وهم صاغرون . . فكان القتال - كما يقول الإمام ابن القيم - " محرماً ، ثم  
مأذوناً به ، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ، ثم مأموراً به لجميع المشركين . .

إن جدية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد ؛ و جدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه ؛ و جدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام ، وعلى مدى طويل من تاريخه . . إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي ! ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله [ ص ] ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي ؛ ثم يظنه شأنًا عارضاً مقيداً بملايسات تذهب وتجيء ؛ ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود؟! !

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض ، لدفع الفساد عن الأرض: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً . . وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة . الشأن الدائم أن لا يتعاش الحق والباطل في هذه الأرض ، وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد ، رماه المعتصبيون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط ؛ وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن "الإنسان" في "الأرض" ذلك السلطان الغاصب . . حال دائمة لا يكف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله .

إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة . كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة . والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة . . هذا هدف أولي لا بد منه . . ولكنه ليس الهدف الأخير . . إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق ؛ ويؤمن قاعدة الانطلاق . . الانطلاق لتحرير "الإنسان" ، ولإزالة العقبات التي تمنع "الإنسان" ذاته من الانطلاق ! وكف أبدي المسلمين في مكة عن الجهاد بالسيف مفهوم . لأنه كان مكفولاً للدعوة في مكة حرية البلاغ . . كان صاحبها [ ص ] يملك بحماية سيوف بني هاشم ، أن يصدر بالدعوة ؛ ويخاطب بها الأذان والعقول والقلوب ؛ وبواجه بها الأفراد . . لم تكن هناك سلطة سياسية منظمة تمنعه من إبلاغ الدعوة ، أو تمنع الأفراد من سماعه ! فلا ضرورة - في هذه المرحلة - لاستخدام القوة . وذلك إلى أسباب أخرى لعلها كانت قائمة في هذه المرحلة . وقد لخصناها عند تفسير قوله تعالى: ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . . من سورة النساء . ولا نرى بأساً في إثبات بعض هذا التلخيص هنا مرة أخرى:

"ربما كان ذلك لأن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد ، في بيئة معينة ، لقوم معينين ، وسط ظروف معينة . ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة بالذات ، تربية نفس الفرد العربي على الصبر على ما لا يصبر عليه عادة من الضيم على شخصه أو على من يلوذون به . ليخلص من شخصه ، ويتجرد من ذاته ، ولا تعود ذاته ولا من يلوذون به محور الحياة في نظره ودافع الحركة في حياته . وتربيته كذلك على ضبط أعصابه ، فلا يندفع لأول مؤثر - كما هي طبيعته - ولا يهتاج لأول مهيج ، ليتم الاعتدال في طبيعته وحركته . وتربيته على أن يتبع مجتمعاً منظماً له قيادة يرجع إليها في كل أمر من أمور حياته ، ولا يتصرف إلا وفق ما تأمره به - مهما يكن مخالفاً لمالوفه وعاداته - وقد كان هذا هو حجر الأساس في إعداد شخصية العربي ، لإنشاء "المجتمع المسلم" الخاص لقيادة موجهة ، المترقي المتحضر ، غير الهمجي أو القبلي !

"وربما كان ذلك أيضاً ، لأن الدعوة السلمية كانت أشد أثراً وأنفذ ، في مثل بيئة قريش ، ذات العنجهية والبشرف ؛ والتي قد يدفعها القتال معها - في مثل هذه المرحلة - إلى زيادة العناد ، وإلى نشأة ثارات دموية جديدة كثارات العرب المعروفة التي أثارت حرب داحس والغبراء ، وحرب البسوس ، أعواماً طويلة ، تفانت فيها قبائل برمتها . وتكون هذه الثارات الجديدة مرتبطة في أذهانهم وذكرياتهم بالإسلام . فلا تهدأ بعد ذلك أبداً . ويتحول الإسلام من دعوة إلى ثارات ودخول تنسى معها وجهته الأساسية ، وهو في مبدئه ، فلا تذكر أبداً !

"وربما كان ذلك أيضاً ، اجتناباً لإنشاء معركة ومقتلة في داخل كل بيت . فلم تكن هناك سلطة نظامية عامة ، هي التي تعذب المؤمنين وتفتنهم . إنما كان ذلك موكولاً إلى أولياء

كل فرد ، يعذبونه ويفتنونه "ويؤذّبونه ! " ومعنى الإذن بالقتال - في مثل هذه البيئة - أن تقع معركة ومقتلة في كل بيت . . ثم يقال: هذا هو الإسلام ! ولقد قيلت حتى والإسلام يأمر بالكف عن القتال ! فقد كانت دعاية قريش في الموسم ، في أوساط العرب القادمين للحج والتجارة: إن محمداً يفرق بين الوالد وولده ، فوق فريقه لقومه وعشيرته ! فكيف لو كان كذلك يأمر الولد بقتل الوالد ، والمولى بقتل الولي . . في كل بيت وفي كل محلة ؟

"وربما كان ذلك أيضاً لما يعلمه الله من أن كثيرين من المعاندين الذين يفتنون أوائل المسلمين عن دينهم ، ويعذبونهم ويؤذّبونهم ، هم بأنفسهم سيكونون من جند الإسلام المخلص ، بل من قادته . . ألم يكن عمر بن الخطاب من بين هؤلاء ؟ !

"وربما كان ذلك أيضاً ، لأن النخوة العربية ، في بيئة قبلية ، من عاداتها أن تثور للمظلوم الذي يحتمل الأذى ، ولا يتراجع ! وبخاصة إذا كان الأذى واقعاً على كرام الناس فيهم . . وقد وقعت ظواهر كثيرة تثبت صحة هذه النظرة - في هذه البيئة - فابن الدغية لم يرض أن يترك أبا بكر - وهو رجل كريم - يهاجر ويخرج من مكة ، ورأى في ذلك عاراً على العرب ! وعُرض عليه جواره وحمايته . . وآخر هذه الظواهر نقض صحيفة الحصار لبني هاشم في شعب أبي طالب ، بعدما طال عليهم الجوع واشتدت المحنة . . بينما في بيئة أخرى من بيئات "الحضارة" القديمة التي مردت على الذل ، قد يكون السكوت على الأذى مدعاة للجزء والسخرية والاحتقار من البيئة ، وتعظيم المؤذي الظالم المعتدي !

"وربما كان ذلك ، أيضاً ، لقلة عدد المسلمين حينذاك ، وانحصارهم في مكة ، حيث لم تبلغ الدعوة إلى بقية الجزيرة ، أو بلغت أخبارها متناثرة ، حيث كانت القبائل تقف على الجهاد من معركة داخلية بين قريش وبعض أبنائها ، حتى ترى ماذا يكون مصير الموقف . ففي مثل هذه الحالة قد تنتهي المعركة المحدودة ، إلى قتل المجموعة المسلمة القليلة - حتى ولو قتلوا هم أضعاف من سيفتل منهم - ويبقى الشرك ، وتنمحي الجماعة المسلمة ، ولم يبق في الأرض للإسلام نظام ، ولا وجد له كيان واقعي . . وهو دين جاء ليكون منهاج حياة ، وليكون نظاماً واقعياً عملياً للحياة . . الخ . . ."

فأما في المدينة - في أول العهد بالهجرة - فقد كانت المعاهدة التي عقدها رسول الله [ ص ] مع اليهود من أهلها ومن بقي على الشرك من العرب فيها وفيما حولها ، ملابسة تقتضيها طبيعة المرحلة كذلك . .

أولاً لأن هناك مجالاً للتبليغ والبيان ، لا تقف له سلطة سياسية تمنعه وتحول بين الناس وبينه ، فقد اعترف الجميع بالدولة المسلمة الجديدة ؛ وبقيادة رسول الله [ ص ] في تصريف شؤونها السياسية . فنصت المعاهدة على ألا يعقد أحد منهم صلحاً ولا يثير حرباً ، ولا ينشئ علاقة خارجية إلا بإذن رسول الله [ ص ] وكان واضحاً أن السلطة الحقيقية في المدينة في يد القيادة المسلمة . فالمجال أمام الدعوة مفتوح ، والتخلية بين الناس وحرية الاعتقاد قائمة .

ثانياً: أن الرسول [ ص ] كان يريد التفرغ - في هذه المرحلة - لقريش ؛ التي تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة في وجه القبائل الأخرى ؛ الواقعة في حالة انتظار لما ينتهي إليه الأمر بين قريش وبعض بنيها ! لذلك بادر رسول الله [ ص ] بإرسال "السرايا" وكان أول لواء عقده لحمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة .

ثم توالى هذه السرايا ، على رأس تسعة أشهر . ثم على رأس ثلاثة عشر شهراً . ثم على رأس ستة عشر شهراً . ثم كانت سرية عبدالله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً . وهي أول غزاة وقع فيها قتل وقتال . وكان ذلك في الشهر الحرام . والتي نزلت فيها آيات البقرة: يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ! قل: قتال فيه كبير ، وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا . . .

ثم كانت غزوة بدر الكبرى في رمضان من هذه السنة . . وهي التي نزلت فيها هذه السورة التي نحن بصدها .

ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع ، لا تدع مجالاً للقول بأن "الدفاع" بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية . كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر ، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر !

إن الذين يلجأون إلى تلمس أسباب دفاعية بحجة لحركة المد الإسلامي ، إنما يؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية ، في وقت لم تعد للمسلمين شوكة بل لم يعد للمسلمين إسلام ! - إلا من عصم الله ممن يصرون على تحقيق إعلان الإسلام العام بتحريف "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان إلا سلطان الله ، ليكون الدين كله لله - فيبحثون عن مبررات أدبية للجهاد في الإسلام ! والمد الإسلامي ليس في حاجة إلى مبررات أدبية له أكثر من المبررات التي حملتها النصوص القرآنية:

فليقاتل في سبيل الله الذين يبشرون الحياة الدنيا بالآخرة . ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً . وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون:ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها ، واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً ؟ الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً . . . [ النساء:74- 76 ] .

قل للذين كفروا:إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير . وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير . . . [ الأنفال:38- 40 ] . .

قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى:المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يصاهئون قول الذين كفروا من قبل ، قاتلهم الله أنى يؤفكون ! إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ؛ ولو كره الكافرون . . . [ التوبة:29- 32 ] .

إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض ؛ وتحقيق منهجه في حياة الناس . ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين ؛ وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس ، والناس عبيد الله وحده يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه ! وهذا يكفي . . مع تقرير مبدأ :لا إكراه في الدين . . أي لا إكراه على اعتناق العقيدة ، بعد الخروج من سلطان العبيد ؛ والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله . أو أن الدين كله لله . بهذا الاعتبار .

إنها مبررات التحريم العام للإنسان في الأرض . بإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا شريك . . وهذه وحدها تكفي . . ولقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين فلم يسأل أحد منهم عما أخرج للجهاد فيقول:خرجنا ندافع عن وطننا المههد ! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين ! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة !

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر ، وحذيفة بن محصن ، والمغيرة بن شعبة ، جميعاً لرستم قائد جيش الفرس في القادسية ، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية ، قبل المعركة:ما الذي جاء بكم ؟ فيكون الجواب:الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . ومن ضيق الدنيا إلى سعتها . ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام . . فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وأرضه . ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر" .

إن هناك مبرراً ذاتياً في طبيعة هذا الدين ذاته ؛ وفي إعلان العام ، وفي منهجه الواقعي لمقابلة الواقع البشري بوسائل مكافئة لكل جوانبه ، في مراحل محددة ، بوسائل متجددة . . وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء - ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها - إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته ، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية . لا من مجرد ملابس دفاعية محدودة ، وموقوتة !

وإنه ليكفي أن يخرج المسلم مجاهداً بنفسه وماله . . في سبيل الله . في سبيل هذه القيم التي لا يناله هو من ورائها مغنم ذاتي ؛ ولا يخرجها لها مغنم ذاتي . . إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان . . مع هواه وشهواته . . مع مطامعه ورغباته . . مع مصالحه ومصالح



عشيرته وقومه . . مع كل شارة غير شارة الإسلام . . ومع كل دافع إلا العبودية لله ،  
وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله . .  
والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يعضون من  
شأن "المنهج" ويعتبرونه أقل من "الوطن" ! وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه  
الاعتبارات . . إنها نظرة مستحدثة غريبة على الحس الإسلامي ، فالعقيدة والمنهج الذي  
تتمثل فيه والمجتمع الذي يسود فيه هذا المنهج هي الاعتبارات الوحيدة في الحس  
الإسلامي . أما الأرض - بذاتها - فلا اعتبار لها ولا وزن ! وكل قيمة للأرض في التصور  
الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها . وبهذا تكون محض  
العقيدة وحقل المنهج و "دار الإسلام" ونقطة الانطلاق لتحرير "الإنسان" . .  
وحقيقة أن حماية "دار الإسلام" حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج  
ولكنها هي ليست الهدف النهائي . وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد  
الإسلامي . إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها . ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق  
إلى الأرض كلها ، وإلى النوع الإنساني بحملته . فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين ،  
والأرض هي مجاله الكبير !

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمنهج الإلهي تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة  
، ونظام المجتمع ، وأوضاع البيئة . . وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة .  
كبي يخلو له وجه الأفراد من الناس ، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم ، بعد أن يحرقها من  
الأغلال المادية ؛ ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار . .  
يجب ألا نخدعنا أو تفرعنا حملات المستشرقين على مبدأ "الجهاد" ، وألا ينقل على  
عاتقنا ضغط الواقع وثقله في ميزان القوى العالمية ، فنروح نبحت للجهاد الإسلامي عن  
مبررات أدبية خارجة عن طبيعة هذا الدين ، في ملابس دفاعية وقتية ، كان الجهاد  
سينطلق في طريقه سواء وجدت هذه الملابس أم لم توجد !  
ويجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا  
الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي . . وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية  
الوقتية . .

حقاً إنه لم يكن بد لهذا الدين أن يدافع المهاجمين له . لأن مجرد وجوده ، في صورة  
إعلان عام لربوبية الله للعالمين ، وتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ، وتمثل هذا  
الوجود في تجمع تنظيمي حركي تحت قيادة جديدة غير قيادات الجاهلية ، وميلاد مجتمع  
مستقل متميز لا يعترف لأحد من البشر بالحاكمية ، لأن الحاكمية فيه لله وحده . . إن  
مجرد وجود هذا الدين في هذه الصورة لا بد أن يدفع المجتمعات الجاهلية من حوله ،  
القائمة على قاعدة العبودية للعباد ، أن تحاول سحقه ، دفاعاً عن وجودها ذاته . ولا بد أن  
يتحرك المجتمع الجديد للدفاع عن نفسه . .

هذه ملابس لا بد منها . تولد مع ميلاد الإسلام ذاته . وهذه معركة مفروضة على الإسلام  
فرضاً ، ولا خيار له في خوضها . وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما  
طويلاً . .

هذا كله حق . . ووفق هذه النظرة يكون لا بد للإسلام أن يدافع عن وجوده . ولا بد أن  
يخوض معركة دفاعية مفروضة عليه فرضاً . .

ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة . . إن من طبيعة الوجود الإسلامي  
ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداء ؛ لإنقاذ "الإنسان" في "الأرض" من العبودية لغير الله .  
ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية ؛ ولا أن ينزوي داخل حدود عنصرية ؛ تاركاً  
"الإنسان" . . نوع الإنسان . . في "الأرض" . . كل الأرض . . للشر والفساد والعبودية لغير  
الله .

إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهجم الإسلام ، إذا  
تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية ؛ ورضي أن يدعها  
وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام ! . . ولكن الإسلام لا يهادنها ، إلا أن  
تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية ، ضمناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق  
مادية من السلطات القائمة فيها .

هذه طبيعة هذا الدين ، وهذه وظيفته بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين وتحرير  
الإنسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين !

وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة ، وتصوره قابعا داخل حدود إقليمية أو عنصرية ، لا يحركه إلا خوف الاعتداء ! إنه في هذه الصورة الأخيرة يفقد مبرراته الذاتية في الإنطلاق !

إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية ، وليس منهج إنسان ، ولا مذهب شيعة من الناس ، ولا نظام جنس من الأجناس ! .. ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين نفتقر في حسنا هذه الحقيقة الهائلة . . حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد . . إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي ! والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق ، بين تصور أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها ، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه . وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداء ، فيدخل في هذه المعركة . .

المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة . فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً . ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة ، تغير المشاعر والمفاهيم الإسلامية تغييرا كبيرا . . خطيرا . .

إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام منهجاً إلهياً ، جاء ليقرر ألوهية الله في الأرض ، وعبودية البشر جميعاً لإله واحد ، ويصب هذا التقرير في قالب واقعي ، هو المجتمع الإنساني الذي يتحرر فيه الناس من العبودية للعباد ، بالعبودية لرب العباد ، فلا تحكمهم إلا شريعة الله ، التي يتمثل فيها سلطان الله ، أو بتعبير آخر تتمثل فيها ألوهيته . . فمن حقه إذن أن يزيل العقبات كلها من طريقه ، ليخاطب وجدان الأفراد وعقولهم دون حواجز ولا موانع مصنعة من نظام الدولة السياسي ، أو أوضاع النابس الاجتماعية . . إن هناك مسافة هائلة بين اعتبار الإسلام على هذا النحو ، واعتباره نظاماً محلياً في وطن بعينه . فمن حقه فقط أن يدفع الهجوم عليه في داخل حدوده الإقليمية ! هذا تصور . . وذاك تصور . . ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيُجاهد . . ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه ، يختلف اختلافاً بعيداً ، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه .

إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداء . فالإسلام ليس نحلة قوم ، ولا نظام وطن ، ولكنه منهج إله ، ونظام عالم . . ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية "الإنسان" في الاختيار . وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته . إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة ، المفسدة للفترة ، المقيدة لحرية الاختيار .

من حق الإسلام أن يخرج "الناس" من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . . ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين ، وتحرير الناس أجمعين . . وعبادة الله وحده لا تتحقق - في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي - إلا في ظل النظام الإسلامي . فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم . حاكمهم ومحكومهم . أسودهم وأبيضهم . قاصيهم ودانيهم . فقيرهم وغنيهم تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء . . أما في سائر الأنظمة ، فيعبد الناس العباد ، لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد . وهو من خصائص الألوهية . فأیما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه فقد ادعى الألوهية اختصاصاً وعملاً ، سواء ادعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء ! وأیما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية سواء سماها باسمها أم لم يسمها !

والإسلام ليس مجرد عقيدة . حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان . إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس . والتجمعات الأخرى لا يمكنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو . ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرر العام . وهذا - كما قلنا من قبل - معنى أن يكون الدين كله لله . فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته ، كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد !

إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر ، وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر ، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة . لأن المستشرقين

صوِّروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة . والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة . ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة . . . ومن ثم يقوم المنافقون - المهزومون - عن سمعة الإسلام ، بنفي هذا الاتهام ! فيلجأون إلى تلمس المبررات الدفاعية ! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته ، وحقه في "تحرير الإنسان" ابتداءً .

وقد غشى على أفكار الباحثين العصريين - المهزومين - ذلك التصور الغربي لطبيعة "الدين" . . . وأنه مجرد "عقيدة" في الضمير ! لا شأن لها بالأنظمة الواقعية للحياة . . . ومن ثم يكون الجهاد للدين ، جهاداً لفرض العقيدة على الضمير ! ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام . فالإسلام منهج الله للحياة البشرية . وهو منهج يقوم على أفراد الله وحده بالألوهية - متمثلة في الحاكمية - وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية ! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام . أما العقيدة فأمرها موكول إلى حرية الاقتناع ، في ظل النظام العام ، بعد رفع جميع المؤثرات . . . ومن ثم يختلف الأمر من أساسه ، وتصبح له صورة جديدة كاملة .

وحيثما وجد التجمع الإسلامي ، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي ، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام . مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان . . . فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد ، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ . مسألة مقتضيات حركة لا مسألة مقررات عقيدة . وعليها الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة ، في المراحل التاريخية المتجددة . ولا نخلط بين دلالاتها المرحلية ، والدلالة العامة لخطة الحركة الإسلامية الثابت الطويل .

وبعد ، فإن هناك بقية في بيان طبيعة "الجهاد في الإسلام" و "طبيعة هذا الدين" يمدنا بها المبحث المجمل القيم الذي أمدنا به المسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان ، بعنوان "الجهاد في سبيل الله" . . . وسنحتاج أن نقبس منه فقرات طويلة ؛ لا غنى عنها لقارئ يريد رؤية واضحة دقيقة لهذا الموضوع الخطير العميق في بناء الحركة الإسلامية:

"لقد جرت عادة الإفرنج أن يعبروا عن كلمة "الجهاد" بالحرب المقدسة" [ ] إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم . وقد فسروها تفسيراً منكراً . وتفننوا فيها ، وألبسوها ثوباً فضفاضاً من المعاني المموهة الملفقة . وقد بلغ الأمر في ذلك أن أصبحت كلمة الجهاد عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق والهمجية وسفك الدماء . وقد كان من لباقتهم ، وسحر بيانهم ، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة ، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة . . . الجهاد . . . تمثلت أمام أعينهم صورة مواكب من الهمج المحتشدة ، مصلنة سيوفها ، متقدة صدورها بنار التعصب والغضب ، متطائراً من عيونها شرار الفتك والنهب ، عالية أصواتها بهتاف: "الله أكبر" ، زاحفة إلى الأمام ، ما إن رأت كافراً حتى أمسكت بخنقه ، وجعلته بين أمرين: إما أن يقول كلمة: لا إله إلا الله " فينجو بنفسه ، وإما أن يضرب عنقه ، فتشخب أوداجه دماً !

"ولقد رسم الدهان هذه "الصورة" بلباقة فائقة ، وتفننوا فيها بريشة المتفنن المبدع ؛ وكان من دهائهم ولباقتهم في هذا الفن أن صبغوها بصغ من النجيع الأحمر ، وكتبوا تحتها:

"هذه الصورة مرآة لما كان يسلف هذه الأمة من شره إلى سفك الدماء ، وجشع إلى الفتك بالأبرياء" !

"والعجب كل العجب ، أن الذين عملوا على هذه الصورة ؛ وقاموا بما كان لهم من حظ موفور في إبرازها وعرضها على الأنظار ، هم هم الذين مضت عليهم قرون وأجيال يتقاتلون ويتناحرون فيما بينهم إرضاء لشهواتهم الدنيئة وإطفاء لأوار مطامعهم الأشعبية ، وتلك هي حربهم الملعونة غير المقدسة [ ] التي أثاروها على الأمم المستضعفة في مشارق الأرض ومغاربها ، وجاسوا خلال ديارهم يبحثون عن أسواق لبضائعهم وأراض لمستعمراتهم التي يريدون أن يستعمروها ، ويستبدوا بمنايع ثروتها دون أصحابها الشرعيين ، ويفتشون عن المناجم والمعادن ، وعمّا تغله أرض الله الواسعة من الحاصلات التي يمكن أن تكون غذاء لبطون مصانعهم ومعاملهم . يبحثون عن كل ذلك وقلوبهم كلها جشع وشره إلى المال والجاه . وبين أيديهم الديابات المدججة ، وفوق رؤوسهم الطائرات المحلقة في جو السماء ، ووراء ظهورهم مئات الألوف من العساكر

المدرية يقطعون على البلاد سبل رزقها ، وعلى أهاليها الوادعين طريقهم إلى الحياة الكريمة ، يريدون بذلك أن يهيئوا وقوداً لنيران مطامعهم الفاحشة التي لا تزيدنا الأيام إلا التهايباً واضطراباً . فلم تكن حروبهم في "سبيل الله" ، وإنما كانت في سبيل شهواتهم الدنيئة ، وأهوائهم الذميمة . .

"هذه هي حال الذين يصموننا بالغزو والقتال ، الذي سبق لنا من أعمال الفنوح والحروب قد مضت عليه أحقاب طويلة . أما أعمالهم المخزية هذه فلا يزالون يقتربونها ليل نهار بمرأى ومسمع من العالم "المتحضر المتمدن" ! . " وأي بلاد الله ، يا ترى ، قد سلمت من عدوانهم ، وما تخصصت أراضيها بدماء أبنائها الزكية ؟ وأية هذه القارات العظيمة من آسيا وأفريقية وأمريكا ما ذاقت وبال حروبهم الملعونة ؟ . . لكن هؤلاء الدهاة رسموا صورتنا بلباقة منكرة ، وأبدأوا وأعادوا في عرضها بشكل هائل بشع ، وقد سحب ذيل النسيان على صورتهم الذميمة ، حتى لا يكاد يذكرها أحد يجنب الصورة المنكرة التي صوروا بها تاريخنا ومآثر أسلافنا . فما أعظم دهاءهم ! وما أبرعهم في التزوير والتمويه !

"أما سذاجتنا وبله رجالنا ، فحدث عن البحر ولا حرج ! وأي بله أعظم من اغترارنا بالصورة المنكرة التي صوروا بها مآثرنا حتى كدنا نؤمن بصحتها ومطابقتها للحقيقة ؟ وما دار بخلدنا أن ننظر إلى الأيدي الأثيمة التي عملت عملها في رسم هذه الصورة المزورة ، وأن نبحت عن الأقلام الخفية التي تفننت في تمويهها وزخرفتها . وقد بلغ من اغترارنا بتزويرهم ، واتخذنا بتلك الصورة المموهة أن اغترارنا الخجل والندامة ، وعدنا نعتذر إلى القوم ، نبدل كلام الله ، ونحرف الكلم عن مواضعه ، ونقول لهم: "ما لنا وللقتال ، أيها السادة ، إنما نحن دعاة مبشرون ، ندعو إلى دين الله ، دين الأمن والسلام والدعة بالحكمة والموعظة الحسنة ، نبلغ كلام الله تبليغ الرهبان وال دراويش والصوفية ، ونجادل من يعارضنا بالتتي هي أحسن ، بالخطب والرسائل والمقالات حتى يؤمن من يؤمن بدعوتنا عن بينة ! هذه هي دعوتنا لا تزيد ولا تنقص ! أما السيف والقتال به فمعاذ الله أن نمت إليه بصلة . اللهم إلا أن يقال: إننا ربما دافعنا عن أنفسنا حينما اعتدى علينا أحد ! ذلك أيضاً قد مضت عليه سنون وأعوام طويلة . أما اليوم فقد أظهرنا براءتنا من ذلك أيضاً ! ومن أجل ذلك نسخنا الجهاد "رسمياً" . ! ذلك الجهاد الممقوت الذي يعمل فيه السيف عمله ! حتى لا يقلق بالكم ولا يقض عليكم المصزع ! فما الجهاد اليوم إلا مواصلة الجهود باللسان والقلم ؛ وليس لنا إلا أن نلعب بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام ! أما المدافع والديابات والرشاشات وغيرها من آلات الحرب واستخدامها ، فأنتم أحق بها وأهلها ! . "هذه مكايدهم السياسية التي كشفتنا لك القناع عن بعضها فيما تقدم . لكننا إذا أنعمنا النظر في المسألة من الوجهة العلمية ، ودققنا النظر في الأسباب التي أشكل لأجلها استجلاء حقيقة "الجهاد في سبيل الله" ، واستكناه سيرها على المسلمين أنفسهم فضلاً عن غير المسلمين ، لاح لنا أن مرجع هذا الخطأ إلى أمرين مهمين لم يسبروا غورهما ، ولم يدركوا مغزاهما على وجه الحقيقة:

"فالأول: أنهم ظنوا الإسلام نحلة [ ] بالمعنى الذي تطلق عليه كلمة " النحلة " [ ]

عامة . .  
"والثاني: أنهم حسبوا المسلمين أمة [ ] بالمعنى الذي تستعمل فيه هذه الكلمة في عامة الأحوال .

"فالحقيقة أن خطأ القوم في فهم هذين الأمرين المهمين ، وعدم استجلائهم لوجه الحق في هاتين المسألتين الأساسيتين هو الذي شوه وجه الحقيقة الناصعة في هذا الشأن ، وعاقبهم عن إدراك مغزى الجهاد الإسلامي . بل الحق - والحق أحق أن يتبع - أن هذا الخطأ السياسي في فهم هاتين المسألتين قد أرخى سدوله على حقيقة الدين الإسلامي بأسره ، وقلب الأمر ظهراً لبطن ، وجعل موقف المسلمين من العالم ومسائله المتجددة ومشاكله المتشعبة حرجاً ضيقاً ، لا يرضاه الإسلام وتعاليمه الخالدة:

"فالنحلة [ ] على حسب الاصطلاح الشائع عندهم ، لا يراد بها إلا مجموعة من العقائد والعبادات والشعائر . ولا جرم أن "النحلة" بهذا المعنى لا تعبدو أن تكون مسألة شخصية . فأنت حر فيما تختاره من العقيدة ؛ ولك الخيار في أن تعبد بأي طريق شئت من رضيت به رباً لنفسك . وإن أبت نفسك إلا التحمس لهذه النحلة والانتصار لعقيدتها فلك أن تخترق الأرض ، وتجوّب بلاد الله الشاسعة ، داعياً إلى عقيدتها ، مدافعاً عن كيانها بالحجج والبراهين ، مجادلاً من يخالفونك فيها بمرهفات الألسنة وأسنة الأقلام . أما السيف وآلات الحرب والقتال ، فمالك ومالها في هذا الشأن ؟ أتريد أن تكره الناس حتى يكونوا

مؤمنين بعقيدتك؟! وإن كان الإسلام نحلة [ ] كنجح العالم ، على حسب الاصطلاح الشائع عندهم كما يزعمون ، فالظاهر أنه لا شأن فيها للسيوف وأدوات الحرب ، كما قالوا . ولو كان موقف الإسلام في نفس الأمر كما زعموا ووصفوا لما كان فيه مساع للجهاد ، ولم يكن من الإسلام في ورد ولا صدر ؛ لكن الأمر على خلاف ذلك ، كما سوف تعرفه فيما يأتي من البيان . وكذلك كلمة " الأمة " [ ] فما هي إلا عبارة عن طائفة من الناس متوافقة فيما بينها [ ] اجتمعت وتآلفت وامتازت من بين طوائف أخرى لاشتراكها في بعض الأمور الجوهرية . فالطائفة التي تكون " أمة " ، بهذا المعنى ، لا يعنىها على استخدام السيوف إلا أمران: إما أن يعتدي عليها أحد ، ويريد أن يسلبها حقوقها المعروفة ؛ وإما أن تحمل هي بنفسها على طائفة أخرى لتنتزع من يدها حقوقها المعروفة . ففي الصورة الأولى منهما ، لها سعة في الأمر ، وهي لا تخلو من وازع خلقي يلجئها إلى استخدام السيوف والبطش بمن اعتدى عليها . وإن كان بعض المتشدين بالأمن والسلام لا يبيح ذلك أيضاً ! - أما الصورة الثانية - أي الاعتداء على حقوق غيرها والإغارة على الشعوب والأمم من غير ما سبب - فلا يبيحها غير الجبابرة المسيطرين [ ] حتى إن ساسة الدول الكبرى وبريطانيا وأمريكا أيضاً لا يقدر أن يجترئوا على القول بجوازها ! " فإن كان الإسلام " نحلة " كالنجح الأخرى ، والمسلمون " أمة " كغيرهم من أمم العالم ، فلا جرم أن " الجهاد " الإسلامي يفقد بذلك جميع المزايا والخصائص التي جعلته رأس العبادات ودرة تاجها . . لكن الحقيقة أن الإسلام ليس بنحلة كالنجح الرائجة ، وأن المسلمين ليسوا بأمة كأمم العالم . . بل الأمر أن الإسلام فكرة انقلاية [ ] ومنهاج انقلاي يريد أن يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد ، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي . . ومن هناك تعرف أن لفظ " المسلم " وصف للحزب الانقلاي العالمي [ ] الذي يكونه الإسلام ، وينظم صفوفه ، ليكون أداة في إحداث ذلك البرنامج الانقلاي الذي يرمى إليه الإسلام ، ويطمح إليه بصره . والجهاد عبارة عن الكفاح الانقلاي [ ] عن تلك الحركة الدائبة المستمرة التي يقام بها للوصول إلى هذه الغاية ، وإدراك هذا المتبغى .

"والإسلام يتجنب الكلمات الشائعة في دعوته وبيان منهجه العملي - شأن غيره من الدعوات الفكرية والمناهج الانقلاية - بل يؤثر لذلك لغة من المصطلحات [ ] خاصة ، لئلا يقع الالتباس بين دعوته وما إليها من الأفكار والتصورات ، وبين الأفكار والتصورات الشائعة الرائجة . " فالجهاد " أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لأداء مهمته وتبيين تفاصيل دعوته . فانت ترى أن الإسلام قد تجنب لفظة [ الحرب ] وغيرها من الكلمات التي تؤدي معنى القتال [ ] في اللغة العربية ، واستبدل بها كلمة [ ] في اللغة الإنجليزية . غير أن لفظة [ الجهاد ] أبلغ منها تأثيراً ، وأكثر منها إحاطة بالمعنى المقصود . فما الذي أفضى بالإسلام إلى أن يختار هذه الكلمة الجديدة ، صارفاً بوجهه عن الكلمات القديمة الرائجة ؟ الذي أراه وأجزم به أنه ليس لذلك إلا سبب واحد: وهو أن لفظة " الحرب " [ ] كانت ولا تزال تطلق على القتال الذي يشب لهيبه وتستعر ناره بين الرجال والأحزاب والشعوب لمأرب شخصية وأغراض ذاتية والغايات التي ترمى إليها أمثال هذه الحروب لا تعدو أن تكون مجرد أغراض شخصية أو اجتماعية ، لا تكون فيها رائحة لفكرة أو انتصار لمبدأ . وبما أن القتال المشروع في الإسلام ليس من قبيل هذه الحروب ، لم يكن له بد من ترك هذه اللفظة [ الحرب ] البتة . فإن الإسلام لا ينظر إلى مصلح أمة دون أمة ؛ ولا يقصد إلى النهوض بشعب دون شعب ؛ وكذلك لا يهيمه في قليل ولا كثير أن تملك الأرض وتستولى عليها هذه المملكة أو تلك ؛ وإنما تهيمه سعادة البشر وفلاحهم . وله فكرة خاصة ومنهاج عملي مختار لسعادة المجتمع البشري والصعود به إلى معارج الفلاح . فكل حكومة مؤسسية على فكرة غير هذه الفكرة ، ومنهاج غير هذا المنهاج ، يقاومها الإسلام ، ويريد أن يقضي عليها قضاء مبرماً ؛ ولا يعنيه في شيء بهذا الصدد أمر البلاد التي قامت فيها تلك الحكومة غير المرضية ، أو الأمة التي ينتمي إليها القائمون بأمرها . فإن غايته استعلاء فكرته ، وتعميم منهجه ، وإقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على أساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ، بصرف النظر عن حمل لواء الحق والعدل بيده ومن تنتكس راية عدوانه وفساده ! والإسلام يتطلب " الأرض " ، ولا يقنع بقطعة أو جزء منها ؛ وإنما يتطلب ويستدعي المعمورة الأرضية كلها . ولا يتطلبها لتستولي عليها وتستبدل بمنابع ثروتها أمة بعينها بعد ما تنتزع من أمة أو أمم شتى ، بل يتطلبها الإسلام ويستدعيها ل يتمتع الجنس البشري بأجمعه بفكرة السعادة البشرية

ومنهاجها العملي اللذين أكرمه الله بهما ، وفضله بهما على سائر الأديان والشرائع .  
وتحقيقاً لهذه الغاية السامية يريد الإسلام أن يستخدم جميع القوى والوسائل التي يمكن  
استخدامها لإحداث انقلاب علمي شامل ؛ ويبدل الجهد المستطاع للوصول إلى هذه  
الغاية العظمى ؛ ويسمى هذا الكفاح المستمر ، واستنفاد القوى البالغ واستخدام شتى  
الوسائل المستطاعة "بالجهاد" . فالجهاد كلمة جامعة تشتمل جميع أنواع السعي وبذل  
الجهد . وإذا عرفت هذا فلا تعجب إذا قلت: إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم  
ونزعاتهم ، وإحداث انقلاب عقلي وفكري بواسطة مرهفات الأقلام نوع من أنواع الجهاد ،  
كما أن القضاء على نظم الحياة العتيقة الجائرة بحد السيوف ، وتأسيس نظام جديد على  
قواعد العدل والنصفة أيضاً من أصناف الجهاد . وكذلك بذل الأموال ، وتحمل المشاق ،  
ومكابدة الشدائد أيضاً فصول وأبواب مهمة من كتاب "الجهاد" العظيم .  
"لكن الجهاد الإسلامي ليس بجهاد لا غاية له ؛ وإنما هو الجهاد في سبيل الله ؛ وقد لزمه  
هذا الشرط لا ينفك عنه أبداً . وذلك أيضاً من الكلمات التي اصطلح عليها الإسلام لتبيين  
فكرته وإيضاح تعاليمه ، كما أشرت إليه آنفاً . وقد انخدع كثير من الناس بمدلوله اللغوي  
الظاهر ، وحسبوا أن إخضاع الناس لعقيدة الإسلام وإكراههم على قبولها هو "الجهاد في  
سبيل الله" وذلك أن ضيق صدورهم وعدم اتساع مجال تفكيرهم يعوقهم أن يسموا  
بأنفسهم فوق ذلك ويحللوا في سماء أوسع من سمائمهم . لكن الحق أن "سبيل الله" في  
المصطلح الإسلامي أرحب وأوسع بكثير مما يتصورون ، وأسمى غاية وأبعد مراماً مما  
يظنون ويرغمون . .

"فالذي يتطلبه الإسلام أنه إذا قام رجل ، أو جماعة من المسلمين ، تبذل جهودها ،  
وتستنفد مساعيها للقضاء على النظم البالية الباطلة ، وتكوين نظام جديد حسب الفكرة  
الإسلامية ، فعليها أن تكون مجردة عن كل غرض ، مبرأة من كل هوى أو نزعة شخصية ،  
لا تقصد من وراء جهودها ، وما تبذل في سبيل غايتها من النفوس والنفائس إلا تأسيس  
نظام عادل يقوم بالفسط والحق بين الناس ، ولا يتبغى بها بدلاً في هذه الحياة الفانية ،  
ولا يكون من هم الإنسان خلال هذا الكفاح المستمر والجهاد المتواصل لإعلاء كلمة الله  
أن ينال جاهاً وشرفاً أو سمعة وحسن أحواله ، ولا يخطرن بباله أثناء هذه الجهود البالغة  
والمساعي الغالية أن يسمو بنفسه وعشيرته ، ويستبد بزمام الأمر ، ويتبوأ منصب  
الطواغيت الفجرة ، بعدما يعزل غيره من الجبايرة المستكبرين عن مناصبهم . وها هو ذا  
القرآن الكريم ينادي بملء صوته:

الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت . . .  
[ النساء: 76 ] . . . " وقد تضمنت الآية الكريمة: يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم  
والذين من قبلكم لعلكم تتقون . . . [ البقرة: 21 ]

"لباب هذه الدعوة ، دعوة الإسلام الانقلابية ، وجوهرها . فإنه لا يخاطب سكان هذه  
الكرة باسم العمال ، أو الفلاحين ، أو الملاكين ، أو المتمولين من أصحاب المعامل  
والمصانع ، ولا يسميهم بأسماء أجزائهم وطبقاتهم . وإنما يخاطب الإسلام بني آدم كافة .  
ولا يناديهم كذلك إلا بصفة كونهم أفراد الجنس البشري ، فهو يأمرهم أن يعبدوا الله  
وحده ولا يشركوا به شيئاً ، ولا يتخذوا إلهاً ولا رباً غيره . وكذلك يدعوهم ألا يعتوا عن أمر  
ربهم ، ولا يستنكفوا عن عبادته ، ولا يتكبروا في أرض الله بغير الحق ، فإن الحكم والأمر  
لله وحده ، ويده مقاليد السماوات والأرض ؛ فلا يجوز لأحد من خلقه ، كائناً كان ، أن  
يعلو في الأرض ويتكبر ، ويقهر الناس حتى يخضعوا له ويذعنوا لأمره وينقادوا لجبروته .  
ودعوته لهم جميعاً أن يخلصوا دينهم لله وحده فيكونوا سواء في هذه العبودية الشاملة ،  
كما ورد في التنزيل: تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً  
، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . . . [ آل عمران: 64 ] .

"فهذه دعوة إلى انقلاب عالمي شامل ، لا غموض فيها ولا إبهام . فإنه قد نادى بملء  
صوته: إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . . . [ يوسف: 40 ]  
"فليس لأحد من بني آدم أن ينصب نفسه ملكاً على الناس ومسيطرًا عليهم ، بأمرهم  
بما يشاء وينهاهم عما يريد . ولا جرم أن استقلال فرد من أفراد البشر بالأمر والنهي من  
غير أن يكون له سلطان من الملك الأعلى ، هو تكبر في الأرض على الله بغير الحق ،  
وعتو عن أمره ، وطموح إلى مقام الألوهية . والذين يرضون أمثال هؤلاء الطواغيت لهم  
ملوكاً وأمراء إنما يشركون بالله ، وذلك مبعث الفساد في الأرض ، ومنه تنفجر ينابيع  
الشر والطغيان .

"إن دعوة الإسلام إلى التوحيد ، وعبادة الله الواحد ، لم تكن قضية كلامية . أو عقيدة لاهوتية فحسب . شأن غيره من النحل والملل ؛ بل الأمر أنها كانت دعوة إلى انقلاب اجتماعي [ ] أرادت في أول ما أرادت أن تقطع دابر الذين تسنموا ذروة الألوهية ؛ واستعبدوا الناس بحيلهم ومكايدهم المختلفة . فمنهم من تبوأ مناصب السدنة والكهان ؛ ومنهم من استأثر بالملك والإمرة ، وتحكم في رقاب الناس ؛ ومنهم من استبد بمنابع الثروة وخيرات الأرض ؛ وجعل الناس عالة عليهم يتكفون ولا يجدون ما يتبلغون به . . فأرادت دعوة الإسلام أن تقطع دابرهم جميعاً وتستأصل شأفتهم استئصالاً . . وهؤلاء تارة تسنموا قمة الألوهية جهراً وعلانية ؛ وأرادوا أن يقهروا من حولهم من الناس على أن يذعنوا لأمرهم ؛ وينقادوا لجبروتهم ؛ مستندين إلى حقوقهم التي ورثوها عن آبائهم ؛ أو استأثرت بها الطبقة التي ينتمون إليها ؛ فقالوا: ما علمت لكم من إله غيري . . و أنا ربكم الأعلى . . و أنا أحيي وأميت . . و من أشد منا قوة ؟ . . إلى غيرها من كلمات الاستكبار ودعاوى الألوهية التي تفوهوا بها وتجاسروا عليها بغياً وعدواناً . وطورا استغلوا جهل الدهماء وسفاهم ، فاتخذوا من الأصنام والتماثيل والهيكل الهة ، يدعون الناس ويريدونهم على أداء مظاهر العبودية أمام هذه التماثيل والهيكل متوارين بأنفسهم من ورائها ، يلعبون بعقول الناس ، ويستعبدونهم لأغراضهم وشهواتهم وهم لا يشعرون ! فيتين من ذلك أن دعوة الإسلام إلى التوحيد ، وإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، وتنديده بالكفر والشرك بالله ، واجتناب الأوثان والطواغيت . . كل ذلك يتنافى ويتعارض مع الحكومة والعاملين عليها المتصرفين في أمورها ، والذين يجدون فيها سبباً لهم ، وعوناً على قضاء حاجاتهم وأغراضهم . . ومن ثم ترى أنه كلما قام نبي من الأنبياء يجاهر الناس بالدعوة ، وخاصيتهم قائلاً يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . . قامت في وجهه الحكومات المتمكنة في عصره ، وثار عليه جميع من كانوا يستغلون خيرات البلاد ويستثمرونها ظلماً وعدواناً . . خرجت تقاومه ، وتضع في سبيل الدعوة العقبات . وذلك أن هذه الدعوة لم تكن مجرد بيان لعقيدة كلامية ، أو شرح لمسألة من مسائل الإلهيات وإنما كانت نداء لانقلاب اجتماعي عالمي ، ما كانت بوادره لتخفى على المستأثرين بمناصب العز والجاه ، المستبدين بمنابع الثراء ، ممن يشمون رائحة الاضطراب السياسي قبل حدوثه بأعوام !

"إن الإسلام ليس بمجرد مجموعة من العقيدة الكلامية ، وجملة من المناسك والشعائر ، كما يفهم من معنى الدين في هذه الأيام . بل الحق أنه نظام شامل ، يريد أن يقضي على سائر النظم الباطلة الجائرة الجارية في العالم ، ويقطع دابرها ، ويستبدل بها نظاماً صالحاً ، ومنهجا معتدلاً ، يرى أنه خير للإنسانية من النظم الأخرى ، وأن فيه نجاتاً للجنس البشري من أدواء الشر والطغيان ، وسعادة له وفلاحاً في العاجلة والآجلة معاً . "ودعوته في هذه السبيل ، سبيل الإصلاح والتجديد والهدم والبناء ، عامة للجنس البشري كافة ، لا تختص بأمة دون أمة ، أو طائفة دون طائفة . فهو يدعو بني آدم جميعاً إلى كلمته ؛ حتى إنه يهيب بالطبقات الجائرة نفسها ممن اعتدوا حدود الله في أرضه . واستأثروا بخيرات الأرض دون سائر الناس . . يهيب بالملوك والأمراء أنفسهم ويناديهم قائلاً لا تطغوا في الأرض ، وادخلوا في كنف حدود الله التي حداها لكم ، وكفوا أيديكم عما نهاكم الله عنه وحذركم إياه . فإن أسلمتم لأمر الله ، وندتم لنظام الحق والعدل الذي أقامه للناس خيراً وبركة ، فلکم الأمن والدعة والسلامة فإن الحق لا يعادي أحداً ؛ وإنما يعادي الحق الجور ، والفساد والفحشاء ، وأن يتعدى الرجل حدوده الفطرية ، ويتغى ما وراء ذلك ، مما لا حظ له فيه حسب سنن الكون ، وفطرة الله التي فطر الناس عليها . "فكل من آمن بهذه الدعوة وتقبلها بقبول حسن ، يصير عضواً في "الجماعة الإسلامية" أو "الحزب الإسلامي" لا فرق في ذلك بين الأحمر منهم والأسود ، أو بين الغني منهم والفقير . كلهم سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأمة على أمة . أو لطبقة على أخرى . وبذلك يتكون ذلك الحزب العالمي أو الأممي ، الذي سمي "حزب الله" بلسان الوحي . "وم الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . . [ التوبة: 33 ]

"فتبين من كل ذلك أن هذا الحزب لا بد له من امتلاك ناصية الأمر ؛ ولا مندوحة له من القبض على زمام الحكم ؛ لأن نظام العمران الفاسد لا يقوم إلا على أساس حكومة

مؤسسة على قواعد العدوان والفساد في الأرض ؛ وكذلك ليس من الممكن أن يقوم نظام للحكم صالح ، ويؤتي أكله ، إلا بعدما ينتزع زمام الأمر من أيدي الطغاة المفسدين . ويأخذه بأيديهم رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ؛ ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً . "وأضف إلى ذلك أن هذا الحزب ؛ بصرف النظر عما يرمى إليه من إصلاح العالم ؛ وبث الخير والفضيلة في أنحاء الأرض كافة ، لا يقدر أن يبقى ثابتاً على خطته ، متمسكاً بمنهاجه ، عاملاً وفق مقتضياته ما دام نظام الحكم قائماً على أساس آخر ، سائراً على منهاج غير منهاجه . وذلك أن حزباً مؤمناً بمبدأ ونظام للحياة والحكم خاص ، لا يمكن أن يعيش متمسكاً بمبادئه عاملاً حسب مقتضاه في ظل نظام للحكم مؤسس على مبادئ وغايات غير المبادئ والغايات التي يؤمن بها ، ويريد السير على منهاجها . فإن رجلاً يؤمن بمبادئ الشيعوية ، إن أراد أن يعيش في بريطانيا أو ألمانيا ، متمسكاً بمبادئه ، سائراً في حياته على البرنامج الذي تقرره الشيعوية ، فلن يتمكن من ذلك أبداً ، لأن النظم التي تقررها الرأسمالية أو الناتسية تكون مهيمنة عليه ، قاهرة بما أوتيت من سلطان ، فلا يمكنه أن يتخلص من برائتها أصلاً . . . وكذلك إن أراد المسلم أن يقضي حياته مستظلاً بنظام للحكم مناقض لمبادئ الإسلام الخالدة وبوده أن يبقى متمسكاً بمبادئ الإسلام ، سائراً وفق مقتضاه في أعماله اليومية ، فلن يتسنى له ذلك ، ولا يمكنه أن ينجح في بغيته هذه أبداً . لأن القوانين التي يراها باطلة ، والضرائب التي يعنفدها غراماً ونهباً لأموال الناس ، والقضايا التي يحسبها جائزة عن الحق واقتتاتاً على العدل ، والنظم التي يعرف أنها مبعث الفساد في الأرض ، ومناهج التعليم التي يجزم بوخامة عاقبتها وسوء نتائجها ، ويرى فيها هلاكاً للأمة . . . يجد كل هذه مهيمنة عليه ، ومسيطرة على بيئته وأهله وأولاده ، بحيث لا يمكنه أن يتخلص من قيودها وينجو بنفسه وأهله من أثرها ونفوذها . فالذي يؤمن بعقيدة ونظام - فرداً كان أو جماعة - مضطر بطبيعة عقيدته وإيمانه بها أن يسعى سعياً في القضاء على نظم الحكم القائمة على فكرة غير فكرته ، ويبدل الجهد المستطاع في إقامة نظام للحكم مستند إلى الفكرة التي يؤمن بها ؛ ويعتقد أن فيها سعادة للبشر . لأنه لا يتسنى له العمل بموجب عقيدته والسير على منهاجه إلا بهذا الطريق . وإذا رأيت رجلاً لا يسعى وراء غايته ، أو يغفل عن هذا الواجب ، فاعلم أنه كاذب في دعواه . ولما يدخل الإيمان في قلبه . وبهذا المعنى ورد في التنزيل:

عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم . والله عليم بالمتقين . . . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . . . [ التوبة: 43 - 45 ] .

"وأي شهادة أصدق ؛ وأي حجة أنصع ؛ من شهادة القرآن وحجته ؛ ففي هذه الآيات من سورة براءة قد نص القرآن الكريم على أن الذي لا يلبي نداء الجهاد ؛ ولا يجاهد بماله ونفسه في سبيل إعلاء كلمة الله ، وإقامة الدين الذي ارتضاه لنفسه ، وتوطيد نظام الحكم المبني على قواعده ، فهو في عداد الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون . . .

"لعلك تبينت مما أسلفنا أنفاً أن غاية [ ] الجهاد في الإسلام ، هي هدم بنیان النظم المناقضة لمبادئه ، وإقامة حكومة مؤسسة على قواعد الإسلام في مكانها واستبدالها بها . وهذه المهمة . . . مهمة إحداث انقلاب إسلامي عام . غير منحصرة في قطر دون قطر . بل مما يريد الإسلام ، ويضعه نصب عينيه أن يحدث هذا الانقلاب الشامل في جميع أنحاء المعمورة . . . هذه غايته العليا ، ومقصده الأسمى الذي يطمح إليه ببصره . إلا أنه لا مندوحة للمسلمين ، أو أعضاء "الحزب الإسلامي" عن الشروع في مهمتهم بإحداث الانقلاب المنشود ، والسعي وراء تغيير نظم الحكم في بلادهم التي يسكنونها . أما غايتهم العليا وهدفهم الأسمى فهو الانقلاب العالمي الشامل [ ] المحيط بجميع أنحاء الأرض . وذلك أن فكرة انقلابية لا تؤمن بالقومية ، بل تدعو الناس جميعاً إلى سعادة البشر وفلاح الناس أجمعين ، لا يمكنها أصلاً أن تصيق دائرة عملها في نطاق محدود من أمة أو قطر . بل الحق أنها مضطرة بسجيته وجلبتها أن تجعل الانقلاب العالمي غايتها التي تضعها نصب عينها ، ولا تغفل عنها طرفة عين . فإن الحق يأبى الحدود الجغرافية ، ولا يرضى أن ينحصر في حدود ضيقة اخترعها علماء الجغرافية واصطلحوا عليها . فالحق يتحدى العقول البشرية النزيهة . ويقول لها مطالباً بحقه: ما بالكم تقولون: إن القضية الفلانية



"حق" في هذا الجانب من ذاك الجبل أو النهر مثلاً؛ ثم تعود القضية نفسها "باطلاً" - بزعمكم - إذا جاوزنا ذاك الجبل أو النهر بأذرع؟! الحق حق في كل حال وفي كل مكان! وأي تأثير للجبال والأنهار في تغيير حقيقته المعنوية؟! الحق ظلل وارف ، وخبره عام شامل ، لا يختص بيئة دون بيئة ، ولا قطر دون قطر . فأينما وجد "الإنسان" مقهوراً فالحق من واجبه أن يدركه ويأخذ بحقه وينتصر له . ومهما أصيبت "الإنسانية" في أبنائها المستضعفين ، فعلى العدل ومبادئه والحاملين للوائه أن يلبوا نداءها ، وبأخذوا بناصرتهم حتى ينتصروا لهم من أعدائهم الجائرين ، ويستردوا لهم حقوقهم المغصوبة التي استبد بها الطغاة بغيا وعدواناً . وبهذا المعنى نطق لسان الوحي ، حيث ورد في التنزيل:

وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها . . . [ النساء:75 ]

"وزد على ذلك أن الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية - على ما أثرت فيها الفوارق القومية والوطنية . وأحدثت فيها من نزعات الشتات والاختلاف - قد تشتمل على تلاؤم شامل ، وتجانس عام بين أجزائها ، ربما يتعذر معه أن تسير مملكة في قطر بعينه بحسب مبادئها وخططها المرسومة المستبينة ، ما دامت الأقطار المجاورة لها لا توافقها على مبادئها وخطتها ، ولا ترصى بالسير وفق منهاجها وبرنامجها . من أجل ذلك وجب على الحزب المسلم ، حفظاً لكيانه ، وابتغاء للإصلاح المنشود ، ألا يقنع بإقامة نظام الحكم الإسلامي في قطر واحد بعينه . بل من واجبه الذي لا مناص له منه بحال من الأحوال ، ألا يدخر جهداً في توسيع نطاق هذا النظام وبسط نفوذه في مختلف أرجاء الأرض . ذلك بأن يسعى الحزب الإسلامي ، في جانب ، وراء نشر الفكرة الإسلامية ، وتعميم نظرياتها الكاملة ونشرها في أقصى الأرض وأدناها ؛ ويدعو سكان المعمورة - على اختلاف بلادهم وأجناسهم وطبقاتهم أن يتلقوا هذه الدعوة بالقبول ، ويدينوا بهذا المنهاج الذي يضمن لهم السعادتين ، سعادت الدنيا والآخرة . . . وبجانب آخر ، يشمر عن ساق الجد ، ويقاوم النظم الجائرة المناقضة لقواعد الحق والعدل والقوة ، إذا استطاع ذلك وأعد له عدته ، ويقوم مكانها نظام العدل والنصفه ، المؤسس على قواعد الإسلام ومبادئه الخالدة التي لا تبلى ، ولن تبلى جدتها على مرور الأيام والليالي .

"هذه هي الخطة التي سلكها . وهذا هو المنهاج الذي انتهجه النبي [ ص ] ومن جاء بعده ، وسار بسيرته من الخلفاء الراشدين ، فإنهم بدأوا ببلاد العرب . ثم أشرقت شمس الإسلام من أفاقها . وأخضعوها أولاً لحكم الإسلام ، وأدخلوها في كنف المملكة الإسلامية الجديدة . ثم دعا النبي [ ص ] الملوك والأمراء والرؤساء في مختلف بقاع الأرض إلى دين الحق والإذعان لأمر الله . فالذين آمنوا بهذه الدعوة انضموا إلى هذه المملكة الإسلامية وأصبحوا من أهلها ، والذين لم يلبوا دعوتها ولم يتقبلوها بقبول حسن شرع في قتالهم وجهادهم . . . ولما استخلف أبو بكر رضي الله عنه ، بعد وفاته [ ص ] والتحاقه بالرفيق الأعلى ، حمل على المملكتين المجاورتين للمملكة الإسلامية . . . مملكتي الروم والفرس . اللتين بلغ من عتوهما وتماديهما في الغي والاستكبار في الأرض ما طبقت شهرته الآفاق . وبلغت هذه الحملات التي بدأ بها الصديق - رضي الله عنه - غايتها في عصر الفاروق الذي يرجع إليه الفضل العظيم في توطيد دعائم المملكة الإسلامية الأولى ، حتى شمل ظلها الوارف تلك الأقطار جميعاً" . . . [ انتهت المقتطفات ] .

على ضوء هذا البيان لطبيعة هذا الدين وحقيقته ، ولطبيعة الجهاد فيه وقيمه ، ولمنهج هذا الدين وخطته الحركية في الجهاد ومراحله . . . نستطيع أن نمضي في تقييم غزوة بدر الكبرى ، التي قال الله سبحانه عن يومها إنه "يوم الفرقان" . . . وأن نمضي كذلك في التعرف إلى سورة الأنفال ، التي نزلت في هذه الغزوة ، على وجه الإجمال .

لم تكن غزوة بدر الكبرى هي أولى حركات الجهاد الإسلامي - كما بينا من قبل - فقد سبقتها عدة سرايا ، لم يقع قتال إلا في واحدة منها ، هي سرية عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من هجرة رسول الله [ ص ] إلى المدينة . . . وكانت كلها تمشياً مع القاعدة التي يقوم عليها الجهاد في الإسلام . والتي أسلفت الحديث عنها من قبل . . . نعم إنها كلها كانت موجهة إلى قريش التي أخرجت رسول الله [ ص ] وللمسلمين الكرام ؛ ولم تحفظ حرمة البيت الحرام المحرمة في الجاهلية وفي الإسلام ! ولكن هذا ليس الأصل في انطلاقة الجهاد الإسلامي . إنما الأصل هو إعلان الإسلام العام بتحرير الإنسان من العبودية لغير الله ؛ وبتقرير ألوهية الله في الأرض ؛ وتحطيم الطواغيت التي تعبد الناس ، وإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله

وحده . . وقريش كانت هي الطاغوت المباشر الذي يحول بين الناس في الجزيرة وبين التوجه إلى عبادة الله وحده ؛ والدخول في سلطانه وحده . فلم يكن بد أن يناجز الإسلام هذا الطاغوت ، تمشياً مع خطته العامة ؛ وانتصافاً في الوقت ذاته من الظلم والطغيان اللذين وقعا بالفعل على المسلمين الكرام ؛ ووقاية كذلك لدار الإسلام في المدينة من الغزو والعدوان . . وإن كان ينبغي دائماً ونحن نقرر هذه الأسباب المحلية القريبة أن نتذكر - ولا ننسى - طبيعة هذا الدين نفسه وخطته التي تحتمها طبيعته هذه . وهي ألا يترك في الأرض طاغوتاً يغتصب سلطان الله ؛ ويعبد الناس لغير ألوهيته وشرعه بحال من الأحوال !

أما أحداث هذه الغزوة الكبرى فنجملها هنا قبل استعراض سورة الأنفال التي نزلت فيها ، ذلك لتنسم الجو الذي نزلت فيه السورة ؛ وندرك مرامي النصوص فيها ؛ وواقعيتها في مواجهة الأحداث من ناحية ؛ وتوجيهها للأحداث من الناحية الأخرى . ذلك أن النصوص القرآنية لا تدرك حق إدراكها بالتعامل مع مدلولاتها البانية واللغوية فحسب !! إنما تدرك أولاً وقبل كل شيء بالحياة في حوها التاريخي الحركي ؛ وفي واقعيتها الإيجابية ، وتعاملها مع الواقع الحي . وهي - وإن كانت أبعد مدى وأبقى أثراً من الواقع التاريخي الذي جاءت تواجهه - لا تتكشف عن هذا المدى البعيد إلا في ضوء ذلك الواقع التاريخي . . ثم يبقى لها إبحاؤها الدائم ، وفعاليتها المستمرة ، ولكن بالنسبة للذين يتحركون بهذا الدين وحدهم ؛ ويزاولون منه شبه ما كان يزاوله الذين تنزلت هذه النصوص عليهم أول مرة ؛ ويواجهون من الظروف والأحوال شبه ما كان هؤلاء يواجهون ؛ ولن تتكشف أسرار هذا القرآن قط للقاعدين ، الذين يعالجون نصوصه في ضوء مدلولاتها اللغوية والبانية فحسب . . وهم قاعدون ! . .

قال ابن إسحاق : ثم إن رسول الله [ ص ] سمع بأبي سفيان بن حرب مقيلاً من الشام في غير لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارة من تجاراتهم . وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون . .

قال ابن إسحاق : فحدثني محمد بن مسلم الزهري ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وعبد الله بن أبي بكر ، وبزید بن رومان ، عن عروة بن الزبير . وغيرهم من علمائنا ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . . كل قد